Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« سمكة الترسة »

بعد أن تولى الحزب الاشتراكى الديمقراطى مقاليد الحكم فى ألمانيا الغربية فى عام ١٩٦٨، انغمس جونتر جراس فى الأعمال السياسية تماما باعتباره من أكبر أنصار هذا الحزب، وكانت أغلب كتبه ومقالاته تتناول الشئون السياسية. إلا أنه فاجأ النقاد والقراء فى عام ١٩٧٧ بروايته الضخمة «*سمكة الترسة*»، التى كانت إيذانا بعودته من جديد لميدان الكتابة الأدبية. لقد وصف أحد النقاد هذه الرواية بأنها «وليمة ممتعة من الكلمات». وكالعادة صمم جونتر جراس غلاف كتابه بأن رسم عليه سمكة الترسة. إن هذا النوع من السمك له فم ضخم قبيح الشكل، وقد رسمه المؤلف وهو يهمس فى أذن إنسان سميكة غضروفية مثل فم سمكة الترسة. فما الذى يهمس به فم سمكة الترسة فى أذن الإنسان؟ عن هذا السؤال تجيب رواية جونتر جراس فى عدة مئات من الصفحات. وقد وصف المؤلف كتابه بأنه «تاريخ الطعام». وهذا فى الواقع تعبير ساخر، لأن السمكة والكاتب لديهما أكثر من ذلك ليقولاه.

إن فم السمكة وهو يلاصق أذن الإنسان لاشك يذكرنا باللوحة المشهورة التى رسمها أحد فنانى عصر النهضة، الذى صور إصبع الإله الخالق وهو يخلق آدم. وهذا هو بالضبط موضوع الرواية: خلق آدم وكيف دخل العدوان إلى العالم، وطموح الرجل وكبرياؤه وغروره، والحرب وكيف نشأت، وكيف صنع التاريخ. إن هذه الرواية تعطينا إجابة أسطورية فى شكل السمكة التى ترمز إلى الرجل، تماما كما ترمز الأفعى إلى المرأة. وهكذا تعود الرواية بنا إلى قصة الخطيئة الأولى وخروج الإنسان الأول من الجنة.

إن الدعاية التى سبقت ظهور هذه الرواية كانت صادقة تماما، لأن هذا العمل يمثل فعلا رجوع المؤلف عن الاهتمام بالأحوال السياسية اليومية، وولوجه عالم السحر والأساطير. إن جونتر جراس يعود إلى طريق المظاهر الجميلة، وبأستاذيته الفائقة فى اللغة يجهز لنا وجبة شهية ممتعة تستغرق سبعمائة صفحة. وهى وجبة مليئة بالمشهيات والتنويعات والأطباق الجانبية التى يعرضها بمهارة، حتى أن الإنسان يستطيع أن يمضى ثلاثة أيام كاملة متفرغا لها مستمتعا بها كما كان الناس يفعلون فيما مضى فى ولائم العرس. ومع ذلك، فالإنسان لا يعتريه الملل، بل يتمنى لو أن الرواية لا تنتهى. ولكن كيف يمكن لتاريخ شقائنا أن يجلب لنا المتعة؟ وكيف يمكن أن تكون القصة القديمة، قصة الصراع بين الجنسين، وجبة شهية أو مجرد تاريخ الطعام؟!